وجود الحُجج الإلهية ودورهم في مراحل الخلق في ضوء الأحاديث الشيعية (دراسة تحليلية)

سلمان بابائي گواري
طالب دكتوراه في قسم علوم القرآن والحديث بجامعة طهران
دكتور محمدعلي مهدوي راد
أستاذ قسم علوم القرآن والحديث بجامعة طهران
دكتور عبدالرحيم حسيني
أستاذ مشارك في قسم الفقه وأصول القانون، جامعة طهران
دكتور علي راد
أستاذ مشارك في قسم علوم القرآن والحديث بجامعة طهران

خلاصة البحث:

ترتبط الإمامة ارتباطًا وثيقًا بالخلق، وفقًا للعديد من الأحاديث في المصادر المعتبرة للإمامية ، من ناحية أخرى، فإنّ الخلق هو أحد أفعال الله تعالى، بغض النظر عن فاعلية الله، ونظرًا لكون الخلق فعلًا، لا بدّ أن يكون له هدف وغاية محددة. هذا البحث مسئول عن تحليل علاقة الإمام بالخلق ويبحث عن الدور الفاعلي أو النهائي المحتمل للإمام مع الوجود كلّه. بعد تمحيص مجمل الروايات حول هذه المسألة ، يمكن تصنيفها إلى فئتين: الارتباط بجزء من الوجود، والاتصال بالوجود كله. لأنّه قد ورد في بعض هذه الأحاديث عن حضور الإمام في الفترات الثلاث قبل الخلق وأثناءه وبعده ، والاكثر تحديا قبل الخلق. لذلك، وبعد دراسة الأحاديث وتحليلها، يمكن النظر في جهات مختلفة، مثل لعب الدور الفاعلي في الخلق والابداع، أو مجرد التواجد والإشراف، أو الحصول على الدور في الهدف النهائي للخلق. إنّ افتراض لعب دور فاعلٍ في الخلق الأوّلي **(خلق لا من شيءٍ كان)**، لا يمكن قبوله بسبب تناقضه مع الدور الإلهي لكونه الخالق المطلق ، وعدم وجود شاهد موثوق به وعدم كفاية دلالات الأحاديث على ذلك.

الكلمات المفتاحية: أحاديث الشيعة، تواصل الإمام، الخلق، ما قبل الخلق، الدور الفاعلي، الدور النهائي(المستهدف).

The presence of divine presences and their roles in creation according to shiite narratives

Salman Babaei Gavari

PhD student of Quranic Sciences and Hadith, University of Tehran

Mohammad Ali Mahdavirad

Professor of the Department of Quranic Sciences and Hadith, University of Tehran

Abd al-Rahim Hosseini

Associate Professor of the Department of Jurisprudence and Fundamentals of Law, University of Tehran

Ali Rad

Associate Professor of the Department of Quranic Sciences and Hadith, University of Tehran

Abstract:

According to numerous narratives of valid Imamia resources, Imamat has a deep connection to the creation. On the other hand, creation, apart from the doer of the deed, who is God himself, and only considering the act of creation needs a specific purpose. This investigation aims to analyze the link between imam and creation and seeking the probable ultimate or subjective role of imam with existence. A precise look at the narratives reveals two kinds of links which is a link with a part of existence and a link with the totality of existence. Furthermore, in some of the narratives, there have been discussed of three period of before, during, and after the creation; the most challenging one of them is before creation. After analyzing the narratives, different possibilities came into the fore; such as performing the subjective role in creation and the mere presence and the ultimate role. The assumption of subjective role in primitive creation, and without pattern, is not acceptable due to the lack of valid narrative evidence and the inadequacy of narrative texts.

Keywords: Shiite narratives, the link to imam, creation, before creation, subjective role, ultimate role.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

المقدّمة

من الشاقّ جدًّا وربما من المتعذّر الحديثُ عن موضوعٍ يعجز الذهن البشري عن إدراكه، خصوصًا إذا أردنا وصفه بالأدوات العلمية والإمكانات المحدودة. ومن هنا، لما نتصفّح التراث الروائي نواجه مفاهيمًا يكون ردّها وإنكارها أصعب بكثيرٍ من القبول بها؛ وذلك بسبب كثرتها وغزارتها وعدم مخالفة مضامينها للتعاليم القرآنية والأسس العقائدية للتشيع. ولإدراك مثل هذه الموضوعات، لا مناص من اللجوء إلى من لديهم ارتباط مباشر بالعلم الإلهي، وبهذا تتجلّى ضرورة الاستعانة بكلام المعصومين (ع). من هذه الموضوعات، الأحاديث التي أشير فيها إلى الكلام عن وجود الإمام قبل خلق المخلوقات ونشوئها، وحضوره في عرصات المحشر، وكذلك الأحاديث التي ذكرت ارتباط الأئمة (ع) بتفاصيل الخلق وشؤون المخلوقات. وإذا ما أردنا استقراء الأحاديث الواردة في هذا المجال، يمكننا تقسيمها إلى طائفتين:

أولًا- الروايات الحاكية عن الارتباط بجزءٍ من الكون: ورد في طائفة من الروايات والأحاديث الشيعية مضمون مشترك مفاده أنّ وجود الظواهر الكونية ووقوعها واستمرارها ببركة وجود أهل البيت (ع)، أو إنّها متوقفة على وجودهم المبارك. وبعبارة مغايرة: أشير في هذه الطائفة من الروايات إلى أنّ إيجاد أيّ مفردة من تفاصيل الظواهر الكونية رهن بوجود الإمام. من هذه الروايات، يمكن الإشارة إلى قول الإمام: «**بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار، وجرت الأنهار، وبنا ينزل غيث السماء وينبت عشب الأرض** ...» (الكليني، ٢٠٠٨: ٣٥١/١؛ الصدوق، ١٩٧٧: ١٥١/١)، «**... ونحن الذين بنا يُنزل الله عزّ وجلّ الرحمة، وبنا يُسقون الغيث، ونحن الذين بنا يُصرف عنكم العذاب**» (الصدوق؛ ١٩٧٥: ٢٠٥/١؛ الصفار؛ ١٩٨٤: ٦٢/١؛ الطوسي، ١٩٩٣: ٥٦٤).

وبحسب تتبّعي في المؤلفات المعتبرة وكتب المتقدمين من الفقهاء والمحدثين إلى القرن الهجري الخامس، وحتى انتهاء الشيخ الطوسي من تأليف مصنّفاته، فإنّ عدد الروايات التي عثرت عليها بمضمون الارتباط بالمجموعة الكونية برمّتها- عدا الروايات المشار إليها- قليل جدًّا، وغالبًا ما يمكن رؤية مثل هذه الأحاديث في الزيارات، جلّها وارد في الزيارة الجامعة الكبيرة (الصدوق؛ ١٩٩٢: ٦١٥/٢؛ الطوسي، ١٩٨٧: ٩٥/٦)، ثم زيارة الإمام الحسين (ع) (الكليني؛ ٢٠٠٨: ٣١٢/٩؛ ابن قولويه؛ ١٩٧٨: ١٩٧).

إنّ وجود عبارات ومضامين خاصّة في هذه الطائفة من الروايات دعا بعض الفقهاء والمفكرين عند تحليلها أو التمسك بها إلى إثبات شأن العلية الفاعلية للأئمة الميامين (ع).

وبالتأمل في الروايات المذكورة، مقارنةً بالطائفة الثانية التي سنشرحها لاحقًا، يمكن أن نستفيد النقاط التالية:

– عدد هذا النحو من الروايات في مصنّفات المتقدمين قليل جدًّا ولا يعدو أصابع اليد.

– سند هذه الروايات مفتقر إلى الرصانة اللازمة (بعضها ضعيف وبعضها خلافيّ).

– المضمون المشترك لهذه الروايات هو الحديث عن ارتباط الظواهر الكونية بالإمام، بعضها بصورة جزئية مثل نزول المطر ونبات العشب و... وبعضها بصورة أوسع وضمن معنى عامّ، من قبيل الحيلولة دون سيخان الأرض باعتبارها من الظواهر الكونية.

– من حيث الأبعاد الزمنية، أشير في هذه الروايات إلى تأثير وجود أهل البيت (ع) في عرصات القيامة أيضًا.

ثانيًا– الروايات الحاكية عن الارتباط بالكون كلّه: إذا ما راجعنا المصادر الحديثية للشيعة سنجد كمًّا هائلًا من الروايات التي جرى الحديث فيها عن الوجود الدائم للإمام في العوالم المختلفة، المضمون العامّ لهذا النوع من الروايات هو أنّ للإمام– من حيث كونه حجّةً إلهيّةً– تأثيرًا كبيرًا وارتباطًا واسعًا في إقامة عالم الكون واستمراره والعوامل المؤثرة عليه.

ليس المراد من ضرورة وجود الحجّة في هذا البحث مجرد الالتفات إلى شأن هداية الأئمة (ع) بوصفهم هداة الأمة وخلفاء النبي الأكرم (ص)، بل المقصود معنى مرادف للإمامة أو «الحجية» باعتبارها من شؤون مقام الإمامة وخصائصها.

ويمكن تقسيم هذا النحو من الروايات إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: الروايات التي تحدثت عن الحضور الدائم للإمام والوجود المستمرّ للحجّة منذ خلق الله النبي آدم (ع) وإلى الأبد، نحو ما روي عن الإمام الباقر (ع) أنّه قال: «**والله ما ترك الله أرضًا منذ قبض آدم (ع) إلا وفيها إمام يُهتدى به إلى الله، وهو حجّته على عباده، ولا تبقى الأرض بغير إمام حجّة لله على عباده**» (الكليني؛ ٢٠٠٨: ابن بابويه؛ ١٩٨٤، ٢٩؛ الصدوق، ٢٠٠٧: ١٩٧/١).

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ – المجلد ٤٨ – كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

الطائفة الثانية: الروايات المتواترة التي كشفت عن تلاشي نظام الكون وانهياره في حال عدم حضور الإمام، وهي ذات مضمون واحد وإن اختلفت التعابير فيها، فتارةً عبّرت عن هذا الأمر بالفعل «ساخت»، نحو ما روي عن الإمام الرضا (ع)، قال: «**لو خلت الأرض طرفة عينٍ من حجّةٍ لساخت بأهلها**» (الصفار، ١٩٨٤، ٤٨٩/١)،[١] وقيل: إنّ هذا التعبير كناية عن هلاك البشر وفنائهم (المازندراني، ٢٠٠٤: ١٥٣/٥). وتارةً أخرى أشارت إلى هذا المضمون بكلمة «ماجت»، مثل قول الإمام الباقر (ع): «**لو أنّ الإمام رُفع من الأرض ساعةً لماجت بأهلها، كما يموج البحر بأهله**» (الصدوق، ١٩٧٥: ٣٠٢/١؛ النعماني، ٢٠١٩: ١٣٩)، حيث شبّه اضطراب الأرض وأهلها بأمواج البحر المتلاطمة.

الطائفة الثالثة: أنبأت هذه الطائفة من الروايات عن حضور الحجّة ووجوده واستمراره قبل الخلق وبعده، وأهمّ رواية في هذا المجال ما ورد في كتاب الكافي عن الإمام الصادق (ع)، قال: «**الحجّة قبل الخلق، ومع الخلق، وبعد الخلق**» (الكليني، ٢٠٠٨: ٤٣٣/١).

وفي ضوء الروايات المتقدمة، لا سيما الطائفة الثانية منها، يتبادر إلى الأذهان السؤال التالي: ما طبيعة ارتباط الحجج الإلهيين بالخلق، وما المراد من وجودهم قبل الخلق بدقةٍ؟ سنجيب عن هذا السؤال في الصفحات القادمة من هذه الدراسة بعد تحليل كيفية ارتباط الإمامة بالكون.

فيما يتعلق بالدراسات السابقة لهذا الموضوع، ينبغي القول: إنّ أغلب الكتب التي تناولت شرح الزيارات المأثورة تطرقت إلى هذه المباحث بصورة متناثرة وفي مطاوي صفحاتها المختلفة، وكذلك الكتب التي بحثت الوجود السابق لأهل البيت (ع)، نحو كتاب «الخلق النوري للنبي وأهل البيت (ع) في الفكر الإمامي»، الذي يعدّ أول كتاب للدكتور إمداد توران، وكتاب «معرفة الإمام ومنزلته في نظام الكون» للسيد محمد ظريف، الذي اقتصر فيه المؤلف على استقصاء الروايات الواردة حول الأئمة (ع) وجمعها وترجمتها إلى اللغة الفارسية، من دون شرح أو تحليل، عدا بعض الموارد النادرة.

إنّ أغلب الدراسات في هذا الموضوع كانت ذات طابعٍ عرفاني وفلسفي (لطيفي، ٢٠٠٩: ١٨٩-٤٢١)، بيد أنّ الدراسة التي بين أيدينا لم تبدِ اهتمامًا بالجانب الفلسفي والعرفاني، وإنّما بحثت الموضوع برؤيةٍ تحليليةٍ شاملةٍ، مع الأخذ بنظر الاعتبار شروح المصادر الروائية وأحدث الآراء والأقوال والمؤلفات في هذا المجال، فمن جهةٍ سعى الباحث إلى تصحيح بعض الأقوال الواردة في الدراسات السابقة، ومن جهةٍ أخرى عمد إلى تقديم رؤيةٍ جديدةٍ ومعرفةٍ صائبةٍ لهذا النحو من الروايات، من خلال مراجعة المصادر الموثوقة والمعتبرة في هذا المجال.

١. ورد بهذا المضمون ١٣ رواية في كتاب الكافي ضمن باب عنوانه «باب أنّ الأرض لا تخلو من حجّة»، أغلبها صحيحة ومسندة (انظر: الكليني، ٢٠٠٨: ٤٣٣/١-٤٣٩).

١- مفهوما الحجّة والخلق

بغية إدراك معنى «قبل الخلق» الوارد في الرواية إدراكًا صحيحًا، ينبغي بحث المفاهيم الدخيلة وذات الصلة بالموضوع في الرواية المذكورة بصورة مفصلة.

١-١- مفهوم الحجّة

الحجّة من الأصل «ح ج ج» بمعنى القصد والسير (الأزهري، ٢٠٠٠: ٢٥٠/٣)؛ ولذا أطلق اسم الحجّ على قصد الكعبة والسير إليها لأداء المناسك (الصاحب، ١٩٩٣: ٢٩١/٢)، ويقال لقارعة الطّريق الواضح أو جادّة الطريق المحجّةُ (ابن منظور، ١٩٩٣: ٢٢٨/٢). وقد فسّر اللغويون الحجّة بمعانٍ مختلفة نظير وجه الظفر عند الخصومة (الفراهيدي، ١٩٨٩: ١٠/٣)، الدليل (ابن الأثير، ١٩٨٩: ٣٤١/١)، البرهان (الجوهري، ١٩٨٧: ٣٠٤/١)، الوسيلة التي يُقصد بها الحقّ المطلوب (ابنفارس، ١٩٨٤: ٣٠/٢)، الدلالة المبيّنة للمحجّة أي المقصد المستقيم الذي يقتضي صحّة أحد النقيضين (الراغب، ١٩٩٢: ٢١٩). ولا يخفى أنّ في جميع المعاني المذكورة للحجّة نحوًا من القصد، ولهذا السبب يطلق لفظ «الحجّة» على الدليل والبرهان؛ لأنّ المتكلم يقصد إثبات وجهة نظره للآخرين بواسطته.

إنّ أصل كلمة «حجّة» لغةً يعني القصد، لكن لكثرة الاستعمال وغلبته استُعملت بمعنى «إثبات المقصود والمدّعى»، ويستفاد منها في الحقيقة العرفية أو مجازًا بمعنى الدليل والبرهان. واصطلاحًا تُطلق هذه المفردة على ما يقيمه كلّ واحد من طرفي الدعوى لإثبات مدّعاه ويحتجّ به لذلك، سواء في المناظرات العلمية أم من الناحية العملية.

ولفظ الحجّة في هذه الدراسة استُعمل بمعنى خاصّ، شيعي وعقائدي، يعبَّر عنه بـ «حجّة الله»، يشمل جميع الموجودات ضمن بُعدٍ زمني غير محدّدٍ ونطاقٍ واسعٍ من الحياة التكوينية والتشريعية، وهو موجود وحاضر دائمًا في العوالم المختلفة بمقتضى اللطف الإلهي.

وبشأن المقصود بالحجّة في الرواية المتقدمة في الطائفة الثالثة، ذكر الشرّاح مصاديق مختلفة لها، مثل النبي آدم (ع) أو جميع الأنبياء (المازندراني، ٢٠٠٤: ١٤٨/٥)، أمير المؤمنين (ع) أو إمام العصر والزمان (عج) (المجلسي، ١٩٨٤: ٢٩٤/٢)، النبي (ص) والأئمة (ع) (حسيني، ١٩٨٥: ٢٣١/٢). لكن في ضوء الحديث عن الحضور السابق بالنسبة إلى جميع الموجودات بحسب البُعد الزمني للرواية، وبالنظر إلى مضمون روايات الخلق النوري التي ذكرت النبي الأكرم (ص) والأئمة الميامين من أهل البيت (ع) فقط، بوصفهم أول المخلوقات الإلهية، وعدم ورود أيّ إنسان أو مخلوق آخر في دائرة شمول هذه الروايات (الكليني، ٢٠٠٨: ٦٩٢/٢؛ الصدوق، ١٩٧٥: ٣١٨/١)، فالظاهر أنّ الحجة في الرواية عبارة عن عنوانٍ مشيرٍ، وليس المراد من الحجةِ الحجةَ التشريعية. وعليه، فهذا المصطلح مشير إلى الشأن والمرتبة، وإذا ما

أريد تطبيقه على مصداق معين فوفقًا لأحاديث الخلق النوري لا ينطبق إلا على النبـــي (ص) والأئمـــة (ع). وأما معنى الحجية الشرعية بشأن المقصود من الحجّة في نشأة «مع الخلق» فهو واضح جـــدًّا، ويمكـــن أن يدخل جميع الأنبياء والأوصياء في دائرة شمول هذه الحجية. وفيما يتعلق بالمقصود منه فـــي نشـــأة «بعـــد الخلق»، ينبغي القول: بما أنّه لا تكليف على أيّ موجودٍ يوم القيامة، فالمراد شيء غير الحجية التشـــريعية، فيمكن أن يشمل أيّ شيءٍ يحتجّ به الباري تعالى على عباده يوم القيامة.

١-٢- مفهوم الخلق

خلْق (بسكون اللام) مصدر من الأصل «خ ل ق» (ابن دريد، ٢٠٠٥: ٦١٨/١). وهو لغةً بمعنـــى التقدير باعتبار إيجاد الشيء على وفق التقدير الذي يريده الموجد، ومنه «خلقتُ الأديم»، وباعتبار ما يستفيده الشيء من شيءٍ آخر (الفراهيدي، ١٩٨٩: ١٥١/٤). ومعنى الخليفـــة هـــو الخلـــق (الصـــاحب، ١٩٩٣: ١٩٤/٤). وذكر ابن الأثير لدى شرحه لهذه المفردة أنّ معنى الخلق الناس، ومعنى الخليقة البهائم، وقيل: هما بمعنى واحد، ويريد بهما جميع الخلائق (ابن الأثير، ١٩٨٩: ٧٠/٢).

ومن المعاني الأخرى لهذه الكلمة، التقدير المباشر أو ابتداع الشيء على مثالٍ لم يُسبق إليـــه، وكـــلّ شيءٍ خلقه الله فهو مُبتدئه على غير مثالٍ سُبق إليه. وفي ضوء هذا المعنى، يمكن إدراك صفة الخالق بالنسبة إلى الله تعالى بصورةٍ أفضل، أي إيجاد الأشياء وإنشاؤها على مثالٍ أبدعه، فالخلق له مطلقًا، ومن صفات الله تعالى الخالق والخلَّاق، ولا تجوز هذه الصفة بالألف واللام لغير الله عزّ وجلّ (الفيـــومي، ١٩٩٣: ١٨٠/٢؛ علم الهدى، ٢٠١٠: ٥٩٤).

وذكر الشرّاح أكثر من معنى لكلمة «خلق» في هذه الرواية، نحو جميع المخلوقـــات (بمعنـــى اســـم المفعول) (صدر المتألهين، ٢٠٠٥: ٤٦٨/٢)، المكلفـــين (المجلســـي، ١٩٨٤: ٢٩٤/٢)، الوجـــود الســـابق (حسيني، ١٩٨٥: ٢٣١/٢). لكنّ كلمة «خلق» وردت في الرواية بصورة مطلقة؛ ولذا فهي شـــاملة لجميـــع المخلوقات. على أنّ الإشارة إلى البُعد الزمني يقوّي هذا الاحتمال؛ إذ لو كان المقصود من الخلق هو الإنسان فقط لتعذّر تصوّر معنى عبارة «قبل الخلق» الواردة في الرواية المذكورة؛ ذلك أنّ الخلق ودار التكليف بـــدأ بخلق النبي آدم (ع)، وعندئذٍ لا مفهوم لمعنى حضور الحجّة قبل الخلق، هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يفيد التدقيق في المعاني اللغوية لكلمة «خلق» أنّها مستعملة في المعنى المصدري «الخلق» وفي المعنى المفعولي «المخلوق» أيضًا.

٢- إناطة تنوير الرواية بالكشف عن معنى الخلق

لإدراك المعنى الصحيح والدقيق والعميق لما ورد في الرواية، ولشرح مفهومها وتبيينه، ينبغي أولًا إيضاح المراد من الخلق وبيان مصاديقه، ومن ثم يتّضح المراد من وجود الحجّة قبل الخلق. وفي هذا السياق، لا بدّ من الالتفات إلى وجود احتمالين في خصوص المقصود بالخلق:

٢-١- الخلق بالمعنى المصدري

نظرًا إلى الاستعمال اللغوي لـ «الخلق» بمعنى التقدير أو مطلق الإيجاد والإبداع، وكذلك الاستعمالات القرآنية والروائية بالمعنى المصدري، يمكن تقسيم الخلق الإلهي إلى قسمين أساسيين: ١- الخلق الأولي وعلى مثالٍ لم يُسبق إليه (خلق لا من شيءٍ كان). ٢- الخلق التقديري (خلق التقدير).

٢-٢-١- الخلق «لا من شيءٍ»

إنّ الخلق بمعنى الإيجاد من الأفعال الإلهية، حيث خلق الله تعالى الكون بعد أن لم يكن بإرادته واختياره، وقد تطرّق المتكلمون والفلاسفة إلى هذه المسألة وسلطوا الضوء على أبعادها المختلفة تحت عنوان «الحدوث والقِدم»، ويعدّ موضوع الخلق من العدم من المسائل المهمة حول كيفية الخلق الإلهي. من هنا، ذهب علماء المسلمون إلى أنّ عبارة «خلق لا من شيءٍ» تصوّر الخلق الإبداعي من دون مادةٍ وصورةٍ مسبقةٍ طبقًا للقدرة والمشيئة والحكمة الإلهية (سلطاني، ٢٠١٩: ١٦٠). ما من شكٍّ في أنّ الباري عزّ وجلّ خالق عالم الإمكان وهو المبدأ الفاعلي له (العنكبوت/ ٦١؛ لقمان/ ٣٥؛ الزمر/ ٣٨؛ الزخرف/ ٩ و ٨٧)، لكنّ الأسئلة المتبادرة هي: ممّ خلق الله الكون؟ وهل ثمّة شيء موجود سابقًا قام الله بإحداث تغيير فيه، أم إنّه خلق عالم الإمكان من لا شيءٍ ومن العدم؟

كانت هذه الأسئلة محطّ اهتمام المفكرين وموضع نقاشاتهم، وثمّة إشكالات على كلا الفرضين، إذ يلزم من الفرض الأول أزلية مادة العدم، ومن الفرض الثاني خلق العالم من «لا شيء» ومن العدم. وبقطع النظر عن البحوث والنقاشات الكلامية والفلسفية حول مسألة «لا من شيءٍ»، مرادنا الخلق من دون مثالٍ يحتذى به ولا تقديرٍ في بحث كيفية الخلق والإيجاد المعبَّر عنه في الروايات بـ «لا من شيءٍ». وبعبارة أخرى: المراد إبداع شيءٍ لم يكن له مثيل من قبل ولا مقتبس من شخصٍ أو كائنٍ آخر. ولا يصدق هذا المعنى من الخلق إلا على الله تعالى ولا يتجسد إلا في فعل الخلق الإلهي، وهو في الحقيقة يرجع إلى أصل التكوين ومطلق الإيجاد، وقد نُقلت هذه المسألة في الأحاديث المأثورة عن الأئمة (ع) في المصادر الشيعية المتقدمة والمعتمدة (الكليني، ٢٠٠٨: ١/٣٢٩؛ المفيد، ١٩٩٢: ٦٥).

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

٢-٢-٢- الخلق التقديري

الخلق والإيجاد أحد المعاني المصدرية لمفردة «الخلق»، وهو فعل خارجي للشيء، ويعدّ نوعًا من الأفعال، وهذا الفعل عامّ وقابل للتعميم على جميع الموجودات. والخلق بمعناه الخاصّ مختصّ بالموجودات المختارة وذات الإرادة الحرّة، وشامل لأفعال الإنسان. وبمعنى آخر: يعدّ فعل الإنسان نحوًا من الخلق. وقد جرى التعبير في الروايات عن أفعال الإنسان بأنّها: «**أفعالُ العباد مخلوقةٌ لله تعالى خلقَ تقديرٍ لا خلقَ تكوينٍ**» (الصدوق، ١٩٥٩: ١٢٥/٢)، وروي ما يشبه ذلك عن الإمام الصادق (ع) والإمام الرضا (ع) بمضمونٍ مشتركٍ ومتقاربٍ إلى حدٍّ ما في كتب المتقدمين، «إِنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ خَلْقَ تَقْدِيرٍ لَا خَلْقَ تَكْوِينٍ» كالشيخ الصدوق (الصدوق، ١٩٨٤: ٣٦١/٢)، والشيخ المفيد (المفيد، ١٩٩٣: ٤٢)، و « إِنَّ أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ خَلْقَ تَقْدِيرٍ لَا خَلْقَ تَكْوِينٍ وَ لَا تَقُلْ بِالْجَبْرِ وَ لَا بِالتَّفْوِيضِ» ابن شعبة الحراني (الحراني، ١٩٨٤: ٤٢١)، والقمّي (القمّي، ١٩٨٩: ١٠٢/١).

إنّ الخلق التقديري نوع من المخلوقية للإنسان وردت الإشارة إليها في الروايات، وإذا ما أمعنّا النظر في تركيبة هذه العبارة أمكن بحثها من ثلاث زوايا: التقدير بالمعنى الاصطلاحي، أي القضاء والقدر الإلهيين، أو التقدير بالمعنى اللغوي، أو التقدير بمعنى منح القدرة. لا شيء من هذه الاحتمالات الثلاثة حول معنى الخلق التقديري معارض للمعاني الأخرى، فيمكن الأخذ بها جميعًا بهذا البيان: إنّ الله تعالى مقدِّر للإنسان بعلمه، كما أنّ فعل الإنسان من الناحية الوجودية منه تعالى؛ لأنّ جميع مبادئ أداء الفعل، ومنها أصل وجوده وتعيين مقداره وقدرته وإرادته، كلّها من الله عزّ وجلّ. أما المعنى الثالث فهو من لوازم المعنى الثاني أساسًا. والنقطة الأخرى في هذا الصدد هي أنّ العلاقة بين الخلق الإلهي وصدور الفعل من الإنسان علاقة طولية قائمة على أساس مفهوم السببية (خوشمنش، ٢٠١٩: ١٤٦).

وعليه، فالمقصود بالخلق التقديري مقابل الخلق «لا من شيءٍ» هو الخلق المسبوق بمثالٍ وأنموذجٍ سابقٍ، ولا يحدث إلا بالتصوير والتقدير بالقدرة الإلهية بإذن الله تعالى. وبالنظر إلى هذا المعنى، يمكن إدراك المقصود في كثير من الروايات حول كرامات الأنبياء ومعجزات الأئمة والأولياء (ع).

٢-٢- الخلق بمعنى اسم المفعول

يمكن تقسيم «الخلق» بمعنى المخلوق من جهاتٍ مختلفةٍ، نحو تقسيم المخلوقات من حيث امتلاك قوة التعقّل وقابلية الحفظ والتكاثر وقوة الإرادة والاختيار وأمثال ذلك، وبالإمكان تقسيم كلّ قسمٍ من هذه الأقسام إلى أقسام فرعية أخرى في بعض الحالات. فعلى سبيل المثال، يمكن تقسيم الموجودات العاقلة أو المختارة من حيث قابلية الرؤية (في الاصطلاح المادي) إلى قسمين: موجودات قابلة للرؤية كالإنسان وغير قابلة لها كالجنّ.

٣- شرح الرواية على أساس الاحتمالات المختلفة لمعنى الخلق

يمكن بحث ارتباط الإمام بالخلق من جهتين بحسب المعنيين اللذين ذكرناهما لكلمة «الخلق»: ١- تفسير الخلق بالمعنى المصدري بمعنى عملية الخلق، ثم الخوض في تحليل علاقة الإمامة بالخلق، وفي هذه الحالة يُلحظ شأن الولاية التكوينية للإمام ووجوده النوري. ٢- اعتبار الخلق بمعنى الاسم المفعولي أي المخلوقات، وعندئذٍ يُبحث الموضوع من زاوية الولاية التشريعية ووظيفة الهداية والوجود العنصري للإمام.

٣-١- معنى الرواية وفقًا للمعنى المصدري للخلق

في ضوء التوضيح المتقدم بشأن شرح مفردات الرواية، إن اعتبرنا ارتباط الإمام بعوالم الوجود المختلفة من قبيل ارتباط العلة والمعلول، يكون الإمام علةً والخلق معلولًا، وحينئذٍ لا بدّ من العمل على كشف علاقة العلية والمعلولية وبيان نوع هذه العلية. ورد في الرواية المذكورة الحديث عن ثلاثة مستويات وأبعاد زمنية أو ثلاث نشآت وجودية. ففيما يتعلق ببُعد «قبل الخلق» ينبغي القول: وفقًا لبيان الأحاديث، كان الخلق النوري يمثل زمنًا أو مرحلةً من مراحل خلق العوالم، لم يوجد فيها سوى نور النبي (ص) وأهل البيت (ع)، والظاهر أنّ المراد من القبلية المذكورة هذه النشأة، ولا ينطبق الحجّة في هذا البُعد الزمني إلا على الوجودات النورانية. وعند بحث الارتباط بين هذه الموجودات وبين الخلق بمعناه المصدري، يمكن التوصل إلى الاحتمالات المذكورة أدناه، ويمكن لحاظ هذه الاحتمالات في هذا الارتباط حينما نلتزم بوجود دورٍ للأئمة في الإيجاد، من المحتمل أن يكون هذا الدور دورًا فاعليًّا أو دورًا غائيًّا، وبالتمعّن في نتيجة هذه الاحتمالات يمكن إدراك الارتباط العامّ للإمام بالعوالم المختلفة بصورةٍ أفضل:

٣-١-١- احتمال أداء دور فاعلي في خلق «لا من شيءٍ»

في مستهلّ عملية الخلق وقبل خلق أيّ كائن، كان الحجّة موجودًا، ثم بدأ الله تعالى الخلق، وهو خلق بصورة أولية أي «لا من شيءٍ»، وقد شارك الأئمة (ع) في عملية الخلق هذه. وبعبارةٍ أخرى: إنّ للأئمة (ع) دورًا فاعليًّا في إيجاد المخلوقات إلى جانب دور الله سبحانه وتعالى. على أنّ الفلاسفة هم من أطلقوا هذه الرؤية في هذا المضمار غالبًا، أو جاءت نتيجة للتحليلات الفلسفية حول ارتباط وجود الإمام بالخلق، ضمن بحث واسطة الفيض العامّ للإمام في الكون أو بحث الولاية التكوينية عادةً. ويمكن تقرير رؤية القائلين بهذ الاحتمال وبيان استدلالهم بالشكل التالي: بدايةً تطرقوا إلى إثبات الموجودات على أساس نظام السبب والمسبّب، ثم عمدوا إلى بيان ضرورة وجود الواسطة في خلق العالم أو تحقق الموجودات.

إنّ للموجودات من حيث الوجود والتكوين مراتب مختلفة، فالموجود الأدنى تابع للأعلى منه، وهو بمثابة جزءٍ وشعاعٍ منه، وينتقل فيض الوجود من العالي إلى الداني حتى يبلغ الحقيقة المحمدية والصادر الأول، الذي هو جمع الجوامع وواسطة الفيض لجميع الموجودات (الطالقاني، ١٩٩٥: ٤٩١/١). ثم يعمل أنصار هذه الرؤية على إثبات وجود وسائط في خلق الموجودات(الطوسي، ٢٠٠٨: ٤٨٤/٣)، استنادًا إلى

قاعدة «الواحد لا يصدر عنه إلا الواحد»، وكذلك لزوم السنخية بين العلة والمعلول(صدرالمتألهين، ٢٠٠٢: ١٩٠).

ثم إنّ فرض الدور الفاعلي للإمام لا يخرج عن إحدى حالتين: ١- أن تكون الفاعلية في عرض الله تعالى وبصورة مستقلة. ٢- أن تكون الفاعلية بشكل طولي.

فيما يرتبط بالحالة الأولى، ينبغي القول: إنّها من الشرك قطعًا؛ وذلك لمخالفة هذا الاحتمال الآيات القرآنية والروايات التي اعتبرت الباري تعالى خالقًا مطلقًا، لا شريك له ولا معين في عملية الخلق، بل هو الفاطر والمبدع (الأنعام/ ٩٥ و ٩٦؛ الأعراف/ ٥٤)، فلا يمكن القبول بهذا الاحتمال بتاتًا؛ ولذا لم يقبل به الداعون إلى إثبات شأن واسطة الفيض العامّ للأئمة أيضًا. وعلى هذا الأساس، فإنّ احتمال الخلق «لا من شيءٍ» محصور بالله تعالى وحده.

لكنّ معترك الآراء بين علماء الفريقين دار حول الحالة الثانية، وهي أنّ الله تعالى خلق العالم، ثم فوّض أمر الخلق والرزق إلى الآخرين بصورة مستقلة بحسب قراءة المعتزلة (البغدادي، ١٩٨٧: ٢٣٩؛ الإسفراييني، ١٩٨٢: ١٢٨؛ الآمدي، ٢٠٠٢: ٦١/٥)، أو فوّضها إلى النبي الأكرم (ص) والأئمة الميامين (ع) بصورة غير مستقلة وفقًا لقراءة الشيعة (الأشعري، ١٩٨١: ٦٠و٦١؛ الطوسي، ١٩٨٨: ٢٢٣؛ الصدوق، ١٩٩٣: ١٠١)، وهذا ما يُعرف بـ «التفويض»، ووقع الاختلاف في هذا الخصوص حول سعة دائرة شؤون المفوَّض إليه، فهل فُوّضت إليه جميع أمور العالم أم المجال التشريعي فقط؟

استفاد بعض العلماء من حرف الباء الوارد في بعض التعابير الروائية مثل: «**بكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه**» الدور الفاعلي التكويني، وقال: إنّ الفاعل والمدبّر بالذات هو الله تعالى، ووجود أهل البيت (ع) مظهر للإدارة وواسطة للفاعلية الإلهية، وقد أحرزوا هذه المرتبة بسبب قربهم الوجودي. وبعبارة مغايرة: ثمّة دور محوري لوجود أهل البيت (ع) النوري والمعنوي في سلسلة الأسباب العليا في عالم الخلق؛ لأنّ هذا التأثير والفاعلية في طول الأسباب والعلل الطبيعية، لا في عرضها، ومن ثم فهو غير مخالف لنظام عالم الطبيعة (رباني، ٢٠١٠: ٢١).

يمكن مناقشة هذا الأمر ضمن النقاط الآتية:

١- لا يهتدى إلى معنى صحيحٍ لهذه الرؤية حول فاعلية غير الله إلا عند وجود شواهد للفاعلية التكوينية أو الخلق «لا من شيءٍ» على التفويض إلى شخصٍ آخر غير الله أو مشاركته، والحال أنّ بعض الآيات القرآنية (فاطر/ ٤١؛ الأنعام/ ٩٥) وعددٍ من الروايات شدّدت على خلاف هذا الأمر.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

٢- على فرض القبول بالدور الفاعلي الطولي غير المستقلّ لأهل البيت (ع) في العالم، فإنّ هذه الفاعلية لا تشمل الخلق الأول والخالقين؛ ذلك أنّه لم يجرِ الحديث في روايات الخلق الأول والخلق النوري عن استعانة الله بأهل البيت (ع) أو استعانتهم به في أمر الخلق، بل ما ورد بصورة مضمونٍ مشتركٍ في هذه الروايات أنّ غاية ما كان يفعله الأئمة من أهل البيت (ع) هو تسبيح الله وتمجيده أو تعليم الملائكة (حرعاملي، ٢٠٠٤: ٢/٢٥٩)، نحو الحديث الوارد عن الإمام السجاد (ع)، الذي ذكر فيه أنّ الله تعالى خلق أهل البيت (ع) من نور عظمته، ثم قال مبيّنًا عملهم خلال تواجدهم حول العرش عند الخلق الأول: «**يعبدونه قبل خلق الخلق، يسبّحون الله ويقدّسونه ...**». (الكافي، ٢٠٠٨: ٢/٦٩٢)

٣- إنّ حرف الباء في الرواية ظاهر في السببية، ولا دليل على رفع اليد عن هذا الظهور، وغاية ما يفيده هو دور الوساطة في الفيض للأئمة (ع) في العالم، ولا يستفاد منه معنى الخالقية.

٤- ربما يقال: إنّ أحاديث من قبيل «**نحن صنائع ربّنا، والخلق بعد صنائعنا**» (الطوسي، ١٩٩١: ٢/٢٥٩) تعدّ شاهدًا على دعوى أنّ لهم دورًا إيجاديًّا في العالم، ويمكن أن تقوّي هذا الاحتمال. ولكن يجاب عن ذلك بما يلي: أ) لا اعتبار بالرواية المذكورة سندًا. ب) وردت هذه الرواية في كتابٍ للإمام علي (ع) بصورةٍ مغايرةٍ وبصيغة «**... الناس بعد صنائع لنا**» (نهج البلاغة، الرسالة رقم ٢٨)، ويستفاد من هذا التعبير العلة الغائية، أي خُلق الناس لأجل الأئمة (ع)، لا العلة الفاعلية. ج) إنّ سياق الرواية المذكورة يرشد إلى دور الهداية الذي يقوم به الإمام، فيمكن أن يكون معناه: إنّنا هُدينا بالله، والناس هُدوا بنا (فارياب، ٢٠١٥: ٩٣).

٥- إنّ محلّ النزاع والاختلاف يدور حول احتمال الخلق بدون مثالٍ ومادةٍ، لكنّنا لما راجعنا المصادر الشيعية المعتبرة والمتقدمة لم نجد روايةً تكشف عن دورٍ فاعلي لأهل البيت (ع) في هذا النحو من الخلق، وما يتشبّث به البعض ويحال إليه كمصدرٍ لذلك ما هي إلا أشباه رواياتٍ، بيّنت مفهوم التفويض العامّ لأمور العالم أو الولاية التكوينية العامة للإمام على الكون (الصغير، ١٩٨٤: ٩٣-١٠١)، نحو خطبة البيان وأمثالها، والأصل في جميع هذه الموارد يعود إلى بعض كتب المتأخرين المفتقرة إلى القيمة العلمية والاعتبار اللازم مثل «مشارق أنوار اليقين» (البرسي، ٢٠٠١: ٣٨).

٦- إنّ وجود تعابير مثل «بنا» و «بكم» في الأحاديث تنقض الاستدلال بالوجود النوري لأهل البيت (ع) في نظام الأسباب والمسببات لأداء دور فاعلي؛ لأنّ هذه العبارات جاءت خطابًا لأفرادٍ كانوا يرون الإمام ثم يسمعون كلامه. وعليه، فمن الناحية العرفية، لا يمكن أن يكون مرادها الوجود النوري الذي لم يقع في هذا العالم، ولم يلمسه الناس.

٧- عند مراجعة المصادر الروائية والتفاسير ذات التوجه الروائي، تحديدًا ذيل الآيات التي أشارت بصيغة السؤال إلى حصر الدور الفاعلي للخالقية بالله تعالى، نحو قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ (لقمان/ ٢٥؛ الزمر/ ٣٨؛ الزخرف/ ٩)، لا نجد حديثًا ذكر أنّ الإمام

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

أو أيّ شخصٍ آخر يعتبر خالقًا أو فاعلًا في الخلق إلى جانب الله تعالى، بل على العكس من ذلك جاء الردّ في بعض الروايات على هذا النوع من الأسئلة كأمرٍ بديهيٍّ، مثل الرواية النبوية الواردة في شرح هذه الآيات: «**كلّ مولودٍ يولد على الفطرة، يعني المعرفة بأنّ الله عزّ وجلّ خالقه**» (البحراني، ١٩٩٥: ٦٠٦/٢).

٨- إن كان المراد من العلة الفاعلية للأئمة (ع) هي أن تكون لهم منزلة في إيجاد المخلوقات كتلك المنزلة التي جعلها الله للوالدين في إيجاد أولادهما، فهذه لا تعدّ علة فاعلية قطّ، وإنّما هي نظير الأسباب المعدّة (صافي كلبايكاني، ٢٠١١: ٤٤).

وبحسب تتبّعي بشأن الاحتمال الأول استنادًا إلى هذه الرواية أو روايات أخرى، لا يمكن إثبات الدور الفاعلي لأهل البيت (ع) في إيجاد المخلوقات بمعنى «لا من شيءٍ» من خلال وجودهم النوري السابق مطلقًا، بل الفاعل الرئيس للخلق بصورةٍ مطلقةٍ هو الله تعالى. وإن وقع الخلق بواسطة أفراد آخرين، أو نُسب إلى أحدهم دور فاعلي في الإيجاد، فهو ليس في عرض الخلق الإلهي، وليس متعلقًا بالخلق الأول و «لا من شيءٍ». وعلى الرغم من إمكان صحّة الدور الفاعلي بشكل طولي من الناحية الثبوتية، نحو كون إرادة الإمام في طول إرادة الباري تعالى، لكن لا دليل على إثبات ذلك من المصادر المعتبرة، كما لا دليل على إنكاره أيضًا، وإذا ما وجد شاهد روائي في هذا المجال فلا بدّ من إخضاعه للبحث بصورةٍ دقيقةٍ.

٣-١-٢- احتمال مجرّد الحضور والإشراف على أمر الخلق

كان الحجّة موجودًا قبل الخلق الأول وقبل وجود أيّ شيءٍ، لكن لم يكن له دور في الخلق الأول ولم يتولَّ دورًا تكوينيًّا في العالم، حيث أثبت عدد كبير من الأحاديث الوجود النوري للنبي (ص) وأهل البيت (ع) بوصفهم أول المخلوقات الإلهية المستقرّة حول العرش الإلهي، وقيل: إنّ العرش في روايات الخلق النوري عبارة عن العلم الإلهي (الطباطبائي، ١٩٩٦: ١٩٠/١)، ولا أحد قادر على تقدير هذا العلم، وكأنّ الله تعالى كان مطّلعًا بهذا العلم على المخلوقات حتى قبل إيجادها، لا أنّ هذا العرش من قبيل الكرسي الذي يجلس الله عليه. ومعنى استقرار أهل البيت (ع) حول العرش إشرافهم على العلم الإلهي قبل خلق سائر المخلوقات (توران، ٢٠٢٠: ١٧٠). وعلى هذا الأساس، لا يُحتمل قيامهم بأيّ نوعٍ من أنواع الخلق ليتسنّى تصور دورٍ فاعلي لهم في الخلق الأول. وعليه، فما يُذكر بعنوان الولاية العامة على الكون أو واسطة الفيض العامّ إنّما هو متعلق بما بعد خلق العالم ودوامه وبقائه.

٣-١-٣- احتمال أداء الإمام (ع) دور غائي

في مستهلّ فتح دفتر الخلق الإلهي، لم يكن في الوجود أيّ مخلوق، حتى الحجّة (الإمام) لم يُخلق بعد، ثم أراد الله تعالى القيام بعملية الخلق. وحيث إنّ كلّ فعل إرادي يؤتى به لأجل هدفٍ معينٍ، فالخلق أيضًا- الذي هو فعل إلهي- غير مستثنى من هذا الأمر. وبشأن الهدف والغاية من خلق العالم، ثمّة نظرية ذُكرت في

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

هذا الصدد تحت عنوان «نظرية الجود»، بمعنى أنّ الله عزّ وجلّ قام بعملية الخلق عن طريق الجود، فهو جواد لا أنّ الجود علّته الغائية، والجود متعلق غايته. وبعبارة أدقّ: جاد الله تعالى لإيجاد العالم لا أنّه خلقه لأجل الجود. في هذه النظرية، تنتفي جميع أشكال العلل الغائية عن الفاعل (بويان، ٢٠١٥: ١٥١). وبعبارة أخرى: إنّ الله في مقام الذات والفاعلية غني وجواد ولا غرض له مطلقًا، أما في مقام الفعل فلفعله هدف وغرض ومصلحة، بل هذا الغرض وهذه المصلحة عين فعله (المصدر نفسه). ثم إنّ الخلق من الأفعال الإلهية ذات الغرض، سواء حُمل على المعنى المصدري أم على اسم المفعول. وإثبات الغرض والهدف مرتبط بالأفعال الإلهية لا بذات الباري عزّ وجلّ، بمعنى أنّ إله العالمين لا غرض له بالخلق باعتبار ذاته المقدسة، ولكن له غرض به باعتبار فعله حتمًا، والخلق أحد أفعاله.

إنّ تعليل الأفعال الإلهية بغايةٍ وغرضٍ يمكن بيانها بصورتين: أن يكون وجود الإمام هدفًا غائيًّا للخلق، أو أن يكون محقّقًا للهدف الغائي.

٣-١-٣-١- الإمام الهدف الغائي من الخلق

يمكن اعتبار الصورة الأولى مرتبطة بالخلق بالمعنى المصدري، بحيث لم يكن في العالم شيء، ثم أراد الله الخلق لا من شيءٍ بالكيفية المتقدمة، وكان له غرض وهدف وغاية من هذا الخلق، والغاية هي النبي (ص) وأهل البيت (ع). ويمكن تحليل هذه المسألة من الناحية العقلية بأنّ بقاء العالم متوقف على وجود الإمام بحسب الروايات؛ لأنّ وجوده علة غائية لوجود العالم. ولما كان من المحال وجود المعلول بدون علته الغائية، يستحيل وجود العالم من دون وجود الحجّة (صدر المتألهين، ٢٠٠٥: ٤٨٧/٢). وقد أشير إلى هذا المطلب في بعض الأحاديث بصورةٍ مباشرةٍ، نحو قول النبي (ص): «**يا علي! لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء، ولا الجنّة ولا النار، ولا السماء ولا الأرض**» (الصدوق، ١٩٧٥: ٢٥٥/١)، حيث اعتبر النبي (ص) في هذا لحديث نفسه والإمام علي (ع) علّةً لإيجاد جميع المخلوقات.

إنّ هذا التحليل بشأن ارتباط الإمام بالخلق بدون مثالٍ سابقٍ هو الأصحّ، والقبول به يتطلب الالتزام بمبدأين: أ) وجود غرضٍ من خلق الكون، ب) إثبات العلية الغائية. فيما يتعلق بالمبدأ الأول يمكن إثباته بسهولةٍ من خلال التدبر في الآيات القرآنية، كالآيات التي أكدت على عدم خلق العالم باطلًا وعبثًا ولعبًا (ص/ ٢٧؛ الدخان/ ٣٨)، وكذلك الآيات التي ذكرت أهدافًا لخلق العالم (الذاريات/ ٥٦). وفيما يرتبط بالمبدأ الثاني فهو قابل للإثبات بمقتضى قاعدة إمكان الأشرف (الطباطبائي، ٢٠٠٩: ١٠٤/١) وقاعدة اللطف (الطوسي، ١٩٨٥: ٤٢٦).

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

بناءً على الأدلة التي تقدمت الإشارة إليها عند مناقشة أداء الدور الفاعلي في المرحلة الأولى من الخلق، يقوى فرض الدور الغائي لأهل البيت (ع) عند الخلق الأول؛ ولذا فنحن نذهب إلى أنّ المعنى الصحيح لوجود الحجّة قبل الخلق هو كون أهل البيت (ع) علةً غائيةً للخلق. وبقبول هذا التفسير، يتّضح معنى ما ورد في بعض الروايات الأخرى بشأن ارتباط الإمام بالعالم. فعلى سبيل المثال، وردت في أحاديث الإمامية تعابير من قبيل «بنا» و «بكم» كهذا الرواية « نَحْنُ الَّذِينَ بِنَا يُمْسِكُ اللَّهُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَ بِنَا يُمْسِكُ الْأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا...» (صدوق، ١٩٧٥: ٢٠٧/١)، فعلى فرض الدور الغائي يصبح معناها «لأجلنا» و «لأجلكم»، وحينئذٍ لا تنافي التوحيد والتعاليم القرآنية والروائية الأخرى أيضًا.

٣-١-٣-٢- الإمام محقِّق للهدف من الخلق

ارتبط وجود العالم ودوامه وبقاؤه بوجود الإمام في أحاديث كثيرة، كما تقدم في تصنيف الروايات، والإمام في هذا النحو من الروايات محقِّق ومجسِّد للهدف من الخلق. فمن منطلق التعاليم القرآنية، يبدو أنّ الكون برمّته خُلق للإنسان وسُخّر له، وهذا التسخير ينطوي على هدفٍ وغايةٍ هي بلوغ السعادة والكمال والقرب الإلهي. ولا ريب في أنّ الإنسان بحاجةٍ إلى حجّةٍ وهادٍ من أجل تحقيق هذا الهدف، وقد أشير في عددٍ من الأحاديث إلى أنّ العقل هو الحجّة الباطنية، والأنبياء والأئمة (ع) الحجّة الظاهرية (الكليني، ٢٠٠٨: ٣٥/١).

وبالنظر إلى هذه الحاجة والهدف، كان هناك إمام وحجّة على وجه الأرض في كلّ زمانٍ، ولن تخلو الأرض من وجود إمامٍ فيها مطلقًا، ولأجل صدق هذه المسألة لا بدّ من لحاظ الإمام بالمعنى العام. وقد ذُكرت وجوه مختلفة لشرح كيفية هذا الارتباط، منها: أ) غياب الإمام والحجّة عن حياة الناس يستلزم الفوضى والفساد والضلال؛ لأنّه يضطلع بدور القائد في المجتمع. ب) سيخان الأرض واضطرابها بأهلها في حال عدم وجود الإمام فيها كناية عن هلاك البشر وفنائهم، لكن لا في الحقيقة والواقع، بل هلاكهم ناجم عن الحروب والنزاعات والفساد والثبور. ج) إنّ الأرض تميد بأهلها حقيقةً عند غياب الحجّة؛ لأنّ الغرض الأصلي من خلق الكون هو أن يكون مسكنًا للناس، ولا قيمة أخلاقية لهذه الحياة بفوات الغرض الأصلي ودون وجود الإمام (المازندراني، ٢٠٠٥: ١٥٣/٥).

ما ينبغي أن نقوله بشأن هذه الوجوه المذكورة في شرح الروايات هو: إنّ الحديث جرى في تلك الوجوه الثلاثة عن وجود الكون وبقائه، وكذلك قُيّد الغرض من وجود الإمام وحُدّدت فلسفة هذا الوجود بالمرجعية الدينية وشأن القيادة السياسية، وأُغفل شأن الولاية بوصفها الضلع الثالث لشؤون الإمامة. ومن الجليّ أنّ تقييد فلسفة وجود الإمام بالهداية في المسائل الدينية والدنيوية، لا يستلزم فناء الأرض عند عدم وجود الإمام ولو للحظةٍ واحدةٍ، هذا من جهةٍ. ومن جهةٍ أخرى، فإنّ الهداية وتفسير الدين وبيان أحكامه من قبل الأولياء والعلماء العارفين بالمسائل الدينية أمر ممكن عند غياب الإمام، وكمثال على ذلك يمكن الإشارة

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

إلى عدم وجود إمامٍ في فترةٍ من الرسل، وكذلك في عصرنا الراهن في ظلّ غياب إمام العصـــر والزمـــان (عج)، فأضحت الأمور الدينية على عاتق العلماء الأعلام.

على أنّ هذا التحليل لفلسفة وجود الإمام منسجم مع الروايات المبيّنة لارتباط الإمام بعالم الكون، كما أنّ هناك شواهد تعزّز هذا الاحتمال والتفسير لتلك الطائفة من الأحاديث، نظير حضور الحجّة فـــي الأرض، وبيان الأحكام، والحيلولة دون تحريف الدين، والهداية إلى الله تعالى و...

٣-١-٤- احتمال الدور الفاعلي في الخلق بشكل تقديري

يقوم هذا الاحتمال على أساس أنّ المواد الأولية للموجـــودات مخلوقـــة وموجـــودة، والأئمـــة (ع) موجودون مسبقًا أيضًا، وعندئذٍ قام الأئمة (ع) في بعض الموارد بخلق أشياء خلقًا تقديريًّا وليس بصيغة «لا من شيءٍ». وبعبارةٍ أخرى: يمكن اعتبارهم في بعض الحالات علةً فاعليةً، ولا مانع من قبول هذا الاحتمال عقلًا، ولا اختصاص له بالأنبياء. وبعبارةٍ مغايرةٍ: هذا الاحتمال مساوق لبيان إعمال الولاية في جـــزءٍ مـــن التكوين، وهو ما يعبَّر عنه في بعض الأمور بواسطة الفيض، وهذا من الشؤون التي خصّ بها الباري تعالى الأئمة الميامين (ع)، ومثال الخلق التقديري بوجودٍ عنصريٍّ بواسطة الإمام هو إحياء الإمـــام الرضـــا (ع) للأسد (الصدوق، ١٩٥٩: ٩٥/١) ودعاؤه للاستسقاء (المصدر نفسه). وربما لا يمكن العثور في المصـــادر الأصيلة والمعتبرة لمتقدمي المحدثين من الإمامية، كالكافي وبصائر الدرجات ومؤلفـــات الشـــيخ الصـــدوق والشيخ الطوسي، إلا على نزرٍ يسيرٍ من الأمثلة في مجال الدور الفاعلي للإمام في الخلق. وإذا مـــا وجـــدت بعض الأمثلة على ذلك في الأحاديث فهي غالبًا ما تكون مرتبطةً بمصادر النصيرية، أو مؤلفات أشخاصٍ من قبيل أحمد الأحسائي، ممن دأبوا على إثبات أنّ الأئمة هم العلل الأربعة للعالم.

ومن هنا، إن أردنا أن نأخذ بالحسبان دور الأئمة (ع) في الخلق، فسواء وجد الحجّة عند الخلق الأول أم لو يوجد، يعدّ الأئمة (ع) غاية الخلق، فلم يخلق الباري تعالى شيئًا إلا من أجلهم.

النتيجة

بنظرةٍ عامّةٍ يمكن تقسيم الروايات الحاكية عن ارتباط الأئمة (ع) بعالم الكون إلى طائفتين أساسيتين: ١- الروايات الحاكية عن الارتباط بجزءٍ من الكون. ٢- الروايات الحاكية عن الارتباط بالكون كلّه.

المقصود بالحجّة في رواية «**الحجّة قبل الخلق**» هو عنوان مشير، والمراد منه الإمام، لا أنّه بمعنى الحجية التشريعية.

وطبقًا لتفسير روايات الخلق بمعناه المصدري، يمكن تقسيمها إلى قسمين: الخلق لا من شيءٍ، والخلق التقديري.

وعند تحليل ارتباط الإمام بالخلق الأول يمكن تصور أربعة احتمالات:

أ) أداء دور فاعلي.

ب) مجرّد الحضور والإشراف.

ج) أداء دور غائي.

د) احتمال أداء دور فاعلي بشكل تقديري.

وفي ضوء سائر الروايات والأحاديث في مجال الخلق النوري، ثمّة إشكالات كثيرة تواجه فـــرض الدور الفاعلي.

وبشأن تحليل ارتباط الإمام بالمخلوقات، يمكن للإمام أن يمثل علةً غائيةً ويكون كسائر الموجـــودات الأخرى، أو يكون دوره الهداية.

المصادر

* القرآن الكريم

١. ابن اثير، مبارک بن محمد (١٩٨٩)، ***النهاية في غريب الحديث و الأثر***، قم: مؤسسة إسماعيليان للمطبوعات.
٢. ابن بابويه، علي بن حسين (١٩٨٤)، ***الإمامة و التبصرة من الحيرة***، قم: مدرسة الإمام المهدى.
٣. ابن دريد، محمد بن حسن (٢٠٠٥)، ***جمهرة اللغة***، مشهد: مؤسسة الطبع و النشر التابعة للآستان الرضوية.
٤. ابن فارس، أحمد (١٩٨٤)، ***معجم مقاييس اللغة***، قم: مكتب الاعلام الاسلامي.
٥. ابن قولويه، جعفر بن محمد (١٩٧٨)، ***كامل الزيارات***، نجف: دار المرتضوية.
٦. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٣)، ***لسان العرب***، بيروت: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع- دار صادر.
٧. الأزهري، محمد بن احمد (٢٠٠٠)، ***تهذيب اللغة***، بيروت: دارالاحياء التراث العربي.
٨. الإسفراييني، طاهر بن محمد (١٩٨٢)، **التبصير في الدين والتمييز الفرقة الناجية**، بيروت: عالم الكتاب.
٩. الأشعري، سعد بن عبدالله (١٩٨١)، **كتاب المقالات و الفرق**، تهران: منشورات مركز المنشورات العلمية و الثقافية.
١٠. آمدي، علي بن محمد (٢٠٠٢)، **إبكار الأفكار في اصول الدين**، قاهره: دارالكتب.
١١. البحراني، سيد هاشم (١٩٩٥)، ***البرهان فى تفسير القرآن***، تهران: بنياد بعثت.
١٢. البرسي، رجب بن محمد (٢٠٠١)، ***مشارق انوار اليقين***، بيروت: الاعلمي.
١٣. البغدادي، عبدالقاهر بن طاهر (١٩٨٧)، **الفرق بين الفرق و بيان الفرق الناجية**، بيروت: دارالجيل.
١٤. پويان، مرتضي (٢٠١٥)، ***قصد الله في الخلق***، تهران: نشر العلم.
١٥. توران، امداد (٢٠٢٠)، ***الخلق النوري للنبي وأهل البيت (ع) في الفكر الإمامي***، قم: دارالحديث.
١٦. الجوهري، اسماعيل بن حماد (١٩٨٧)، ***الصحاح اللغة و العلوم***، بيروت: دار العلم للملايين.
١٧. الحر عاملي، محمد بن حسن (٢٠٠٤)، ***اثبات الهداة بالنصوص و المعجزات***، بيروت: اعلمي.
١٨. الحراني، حسن بن على (١٩٨٤)، ***تحف العقول***، قم: جماعة المدرسين.
١٩. الحسيني، محمد (١٩٨٥)، ***شعاع ساطع من الأصول الكافية***، قم: المطبعة العلميه.

٢٠. خوش‌منش، أبوالفضل و الآخرون (٢٠١٩)، التحقيق في روايات خلق الأفعال البشرية في جوامع الحديث الشيعية، ***مجلة حديث پژوهي***، العدد ٢٠.

٢١. الراغب اصفهاني، حسين بن محمد (١٩٩٢)، ***المفردات في غريب القرآن***، دمشق- بيروت: دارالعلم الدار الشامية.

٢٢. الرباني، علي (٢٠١٠)، الدور الفاعلي للإمام في نظام الخلق، ***مجلة الانتظار الموعود***، السنة التاسعة، العدد ٢٩.

٢٣. سلطاني، محمد (٢٠١٩)، التحليل المفاهيمي والمنطقي لأحاديث لامن شيء، ***مجلة المطالعات القرآن و الحديث***، العدد ٢٢.

٢٤. الصاحب بن عباد، إسماعيل بن عباد (١٩٩٣)، ***المحيط في اللغة***، بيروت: عالم الكتاب.

٢٥. صافي گلپايگاني، لطف الله (٢٠١١)، ***الولاية التكوينية والتشريعية***، قم: مسجد مقدّس الجمكران.

٢٦. صدر المتألهين، محمدبن ابراهيم (٢٠٠٢)، ***المبدأ و المعاد***، ترجمة محمد ذبيحي، قم: منشورات الاشراق.

٢٧. صدر المتألهين، محمدبن ابراهيم (٢٠٠٥)، ***شرح اصول الكافي***، تهران: مؤسسة الأبحاث الثقافية.

٢٨. الصدوق، محمد بن على (١٩٧٧)، ***توحيد***، قم: جماعة المدرسين.

٢٩. الصدوق، محمد بن على (١٩٨٤)، ***خصال***، قم: جماعة المدرسين.

٣٠. الصدوق، محمد بن على (١٩٩٣)، **إعتقادات الأمامية**، قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد.

٣١. الصدوق، محمد بن على (٢٠٠٧)، ***علل الشرائع***، قم: مكتبة الداوري.

٣٢. الصدوق، محمدبن علي (١٩٥٩)، ***عيون أخبار الرضا(ع)***، تهران: نشر العالم.

٣٣. الصدوق، محمدبن علي (١٩٧٥)، ***كمال الدين و تمام النعمة***، تهران: الاسلامية.

٣٤. الصدوق، محمدبن علي (١٩٩٢)، ***من لايحضره الفقيه***، قم: مكتب منشورات الاسلامي.

٣٥. الصغير، جلال الدين (١٩٨٤)، ***الولاية التكوينية الحق الطبيعي للمعصوم***، بيروت: دارالأعراف للدارسات.

٣٦. الصفار، محمد بن حسن (١٩٨٤)، ***بصائر الدرجات في فضائل آل محمّد صلّى الله عليهم***، قم: مكتبة آية الله المرعشي النجفي.

٣٧. الطالقاني، نظرعلي (١٩٩٥)، ***كاشف الأسرار***، تهران: منشورات الرسا.

٣٨. الطباطبايي، سيدمحمدحسين (٢٠٠٩)، ***نهاية الحكمة***، قم: موسسة النشر الاسلامي.

٣٩. الطباطبايي، سيد محمد حسين (١٩٩٦)، ***الميزان فى تفسير القرآن***، قم: موسسة النشر الاسلامي.

٤٠. الطوسي، محمد بن حسن (١٩٨٧)، ***تهذيب الاحكام***، تهران: دار الكتب الإسلاميه.

٤١. الطوسي، محمد بن حسن (١٩٨٨)، **إختيار معرفة الرجال**، مشهد: جامعة المشهد.

مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية
العدد ٤ - المجلد ٤٨ - كانون الأول لسنة ٢٠٢٣

٤٢. الطوسي، محمدبن حسن (١٩٩١)، ***الغيبة***، قم: دار المعارف الإسلامية.

٤٣. الطوسي، محمدبن حسن (١٩٩٣)، ***الأمالي***، قم: دار الثقافة.

٤٤. الطوسي، نصيرالدين محمد (١٩٨٥)، ***تلخيص المحصل***، بيروت: دار الاضواء.

٤٥. الطوسي، نصيرالدين محمد (٢٠٠٨)، ***شرح الاشارات و التنبيهات***، تحقيق حسن حسن زاده آملي، قم: بوستان كتاب.

٤٦. علم الهدي، سيد مرتضي (٢٠١٠)، ***الذخيرة في علم الكلام***، قم: منشورات الاسلامي.

٤٧. فارياب، محمدحسين (٢٠١٥)، تحقيق في نور الحياة النوري للأئمة، **مجلة المعرفة الكلامي**، سنة الخامس، العدد ٢.

٤٨. الفراهيدي، خليل بن أحمد (١٩٨٩)، ***كتاب العين***، قم: نشر الهجرة.

٤٩. الفيومي، احمد بن محمد (١٩٩٣)، ***المصباح المنير في غريب الشرح الكبير***، قم: مؤسسة دار الهجرة.

٥٠. القمي، على بن ابراهيم (١٩٨٩)، ***تفسير القمي***، قم: دار الكتاب.

٥١. الكلينى، محمد بن يعقوب (٢٠٠٨)، ***كافي (ط – دار الحديث)***، قم: دار الحديث.

٥٢. لطيفي، رحيمي (٢٠٠٩)، ***امامت و فلسفه خلقت***، قم: منشورات الجمكران.

٥٣. المازندارني، محمد صالح (٢٠٠٤)، ***شرح الكافي***، تهران: المكتبة الإسلامية.

٥٤. المجلسي، محمدباقر (١٩٨٤)، ***مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول***، تهران: دار الكتب الإسلامية.

٥٥. المفيد، محمد (١٩٩٢)، ***مسائل العكبرية***، قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد.

٥٦. المفيد، محمد (١٩٩٣)، ***تصحيح اعتقادات الامامية***، قم: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد.

٥٧. النعماني، محمد (٢٠١٩)، ***الغيبة للنعماني***، تهران: منشورات الصدوق.